الهُويّة اللغوية للعراق، مقاربة في المفهوم والمنهج

ورود هادي نصيف	جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد) للعلوم الإنسانية
wurud.hadi2103p@ircoedu.uobaghdad.edu.iq	
أ.م.د حسام قدوري عبد	جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد) للعلوم الإنسانية
husam.qaddoori@ircoedu.uobaghdad.edu.iq	

المستخلص:

إنَّ البيئة التأريخيّة- التي تحدد (العراق) جغرافيًا، وتأريخيًا، وحضاريًا- هي التي خلقت مفهوم الهُويّة اللغوية، ولعلّ هُويّة العراق من أكثر الهويات اللغوية تعقيداً؛ نتيجة عمق تأريخه وتوالي الثقافات والمجتمعات عليه، والتعدد اللغويّ على مرّ حضاراته يعكس تنوعًا لغويًا في الثقافات التي هي جزء أساسي لهوية العراق، مظهرة ثراءً ثقافياً في الجوانب التأريخيّة والجغرافيّة والاجتماعيّة؛ إذ تنوعت بيئته على مرّ عصوره بين اقصاءٍ لعرق واقصاء للغة، فكان نتاج هذا كلّه تعقيداً وتنوّعاً لغويّا ميّز العراق عن غيره.

يرصد البحث قيمة الهوية اللغوية للعراق، ودراسة اللغات التي عاشت منذ القدم فيه، وقد جاء البحث في مجموعة من المطالب، هي: مصطلح الهُويّة بين مرجعيّة اللغة والفلسفة. وماهيّة (اللغة) في اللغة والاصطلاح، والعلاقة

بـين اللغـة والهويـة، والهويـة، واللغـة، والعـراق، الصـراع اللغـوي، والهويـة اللغوية. ثم الخاتمة والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الهوية، اللغة، العراق، مقاربة، مفهوم، منهج.

he Linguistic Identity of Iraq: A Conceptual and Methodological Approach

Wurood Hadi Nusayf
Department of Arabic Language / College of Education Ibn Rushd for Human Sciences / University of Baghdad.
Assistant Professor Dr. Hossam Qadoori Abd
Department of Arabic Language / College of Education Ibn Rushd for Human Sciences / University of Baghdad.

Abstract:
The historical environment that defines (Iraq) geographically, historically and culturally created the concept of linguistic identity, and perhaps Iraq's identity is one of the most complex linguistic identities; as a result of the depth of its history and the succession of cultures and societies on it, and the linguistic diversity over the course of its civilisations reflects Linguistic diversity in the cultures that are an essential part of Iraq's identity, showing a richness in historical, geographical and social aspects, as its environment has varied throughout its eras between the exclusion of a race and the exclusion of a language, and the result of all this was a complexity and linguistic diversity that distinguished Iraq from others.
The research monitors the value of the linguistic identity of Iraq and the study of the languages that have lived since

ancient times in the country: The term identity between the reference of language and philosophy. The term identity between the references of language and philosophy, the relationship between language and identity, identity, language, Iraq, linguistic conflict, and linguistic identity. Then the conclusion and recommendations.
Keywords: Identity, Language, Iraq, Approach, Concept, Method.

المطلب الأول: مصطلح الهُويّة بين مرجعيّة اللغة والفلسفة.

أولاً: المرجعيّة اللغويّة:

يذكر ابن فارس للجذر (هوي) مجموعة من المعاني، هي الخُلُوّ والسُقُوطِ، ويرتبط بهذا المعنى كل موقع أرضي يرتبط بالسقوط كالهاوية لعمقها، لذا كان المصدر (الهويّ) السقوط من المنحدر، وهذا المعنى يجمع بين ارتفاع وسقوط منه إلى منحدر. (فارس، 1979، الصفحات 6/ 15- 16). وعليه فالمهوى مكان السقوط الذي يلاحظ فيه نقطة انطلاقه تارة، ونقطة استقراره أخرى. ويؤيده ما ذكره المعجميون من ارتباط هذا الجذر بالحفرة العميقة، وَفِي الْحَدِيثِ: إِذَا عَرَّسْتم فاجْتَنِبُوا هُوِيَّ الأَرضِ (الهروي، 1999، صفحة 1954/6)؛ جَمْعًا لهُوَّة، وَهِيَ حُفْرة وَمُطَمْئِنُ مِنَ الأَرض، وهي المَهْواةُ كذلك (منظور، 1414، صفحة 15/ 374).

وعليه فإن هُوية بالضم، أو الفتح تدلّ على التضاريس سواء كانتا وجه الأرض، أم قعره، وتطورت دلالته حديثاً لتدلّ على ماهيّة الشيء، وما يكشف عن نفسه وما يميزه عن غيره، كأنّ وجه ذلك الارتباط بين الهوية

والمعنى الأصليّ في الجذر مأخوذ من انتساب الإنسان إلى الأرض التي درج عليها، ولذا شاع تعبير (مسقط الرأس) دلالة على الانتماء لأرض ما.

ثانياً: المرجعيّة الفلسفيّة:

ويعدُّ الافتراض الثاني الذي يبيّن معنى الهوية، ولعلّ أول من فسّره في التراث الماتريديّ (ت333 هـ) وعدَّ الهوية كناية عن الوجود (الماتريدي، د.ت، صفحة 105)، ولما كان في اللغة متسع من التأويل فهو الأقرب ولا يتعارضان؛ لأن الثاني إنما أخذ بلحاظ الأول افتراضًا، فعُرّفت بأنها مصدر صناعي من كلمة (هو)، دلالة على أن الشيء هو هو، ولا يُراد سواه، ويقصد بها الذات الثابتة عن طريق تغير أحوالها مثل: هوية الأنا (اليعقوبي، 2008، صفحة 174).

وقد أُصطنع هذا التعريف من قبل الفلاسفة وحجتهم في ربط الخبر بالمخبر عنه "كما يربط بينهما في الفارسيّة بـ(هَسْتْ)، وفي اليونانية بـ(أستين)، وفي السُّغْدية بـ (أستي)، وفي الإنكليزية بـverb to be، وفي الفرنسية بـ êtreverbe، وفي الألمانية sein وإنما اصطنعوه لهذا المعنى لمَّا لم يجدوا في العربية لفظا يقابل (أستين) سوى (هو) في نحو:(هذا هو زيد)، فقد زعموا أنه بمعناه، وأنه ليس بضمير يدلّ على المفرد المذكر الغائب فحسب، وقالوا: إن استحداثه لهذا المعنى مما تقتضيه ضرورة العلوم النظرية، وصناعة المنطق، ثم اشتقوا منه (الهُويَّة)" (الغوث، 2021، صفحة 1/ 21). ويوجزها الجرجانيّ (ت هـ) بـ"الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النَّواة على الشّجرة في الغيب" (الجرجاني، د.ت، صفحة 216). أي بمعنى القوة الكامنة وهو ما يعرف في الفلسفة (الوجود بالقوة).

أما معناها عند التهانويّ (ت 1191هـ)؛ فيتلخص في (التشخّص)، وما هي إلا مرتبة للذات البحتة، الذي به الشيء هو هو، لاعتبار تحقق الشيء يسمى ذاتاً، وحقيقة، ولاعتبار تشخصه يدعى هوية. وذكر أنّ الهوية اعتبار معنوي للتمييز بين الأغيار المختلفة (الكفوي، 1937، صفحة 961) (صليبة، 1982، صفحة 2/ 530).

فمن قال: إنَّ الهوية من (هو هو) فهي مصدر صناعي (اليعقوبي، 2008، صفحة 174) وليس أصله فعلاً، وهذا يعني أنَّ البناء اللغوي لهما مختلف، وبهذا تكون المرجعية الفلسفية مبنية على قضية خاصة؛ لأنَّهم صاغوه من الضمير (هو) كالأنويّة من الأنا، بذلك يكون إطار الهوية حاملاً صفة التمييز، أي مميزة للشيء عن غيره فاصلة له.

وترتبط الهوية لدى الفيلسوف الكَنَديّ تشارلز تايلور بكينونة الإنسان والمكان الذي ينتمي إليه، إنها تعكس بحقّ الخبرات والتجارب السابقة، التي تُزيد معنى على رغباتنا، وأذواقنا، وخياراتنا، ومطامحنا... وترتكز بحد كبير على العلاقات التحاورية مع الآخرين (فضيلة، 2017، صفحة 7)، وعليه فالهوية مفهوم مركب من مجموعة مؤثرات صانعة للذات، وكلامه وإن نحى في ظاهره إلى الاكتساب الاجتماعيّ والثقافيّ غير أنَّه لا يتجاوز حدود مفهوم الهوية لدى الفلاسفة الأقدمين من معنى التميّز والتفريق، والاختلاف واعتماد مفهوم الانفصال بين شيء وآخر؛ فالمصطلح بعد ذلك شائك؛ لارتباطه بالذهنية الفلسفية، والذهنية الفلسفية البشرية مختلفة؛ لأنَّ الرؤية للقضية من الناحية الفلسفية في الغالب تكون ذاتية وليست جمعية، ومن ثَمَّ تكون نتائجها مختلفة وإن تقاربت عند بعض منهم لكنه ليس حاسماً للقضية؛ كما تبيّن من الركون إلى تجذير الرؤية اللغوية الذي يمنحنا نتيجة أخرى في تفسيره ألا وهي التضاريس (نبي، س، 2023: 34).

ولشمول ما تعنيه الهوية صَعُبَ تحديد مفهومها؛ كونها قائمة على حركة توليد الاختلافات والفوارق، وهي انتقال ملتوٍ وملتبس من مخالف لآخر، فالهوية لا ترتبط بزمن ثابت ولا حضور أو غياب، لكنّ للزمن الأثر البالغ في حركة تغيرها أو انقطاعها، فهي ثابتة في زمنها لكنها متغيرة في الأزمنة الأخرى؛ لما يصيب كيانها من تغيرات (M.Heidegger، 1962، صفحة 209)، أما أهم الوظائف التي تقدمها الهوية:

1. الاستمرارية لموروثات الجماعة، أي ما تضفيه عليها خلال المراحل الزمنية المتعاقبة وحفظها للتاريخ.

2. الانسجام ومن خلالها يخلق التجانس والتقارب الفكري والاعتقادي بين أفراد المجتمع الواحد.

الدفاع؛ لأثرها في الحفاظ على الثوابت الوجوديّة لذلك المجتمع (توفيق، 2016-2017، الصفحات 6- 12).

المطلب الثاني: ماهيّة (اللغة) في اللغة والاصطلاح

الأصل في اللغة هو الكلام وتداوله مع الآخر (فارس، 1979، الصفحات 5/ 255- 256)؛ فهي قائمة على ما ينطقه الفرد ويسمعه الآخر شرط الافهام في ذلك أي المشاطرة في الذهنية وما يربطهم ببعض من بيئة وثقافة (منظور، 1414، صفحة 15 /250).

وأقدم ما ورد في حدّ اللغة في الاصطلاح ما ذكره ابن جنيّ (ت 392 هـ) بأنَّها ما "يعبر به كلّ قوم عن أغراضهم" (جني، 2010، صفحة 1/ 33)؛ إذ يشير هذا الحدّ إلى مكانة اللغة المهمة في دورة حياة الأجيال وتعاقبها، وما للغة من قيمة نفعيّة تعود بها على متكلميها بتعابيرهم، إذن هي "وسيلة إنسانية محضة لإيصال الأفكار والعواطف والرغبات عن طريق نظام من

الإشارات المقصودة (عمر، 2010، الصفحات 17- 18)، ولا يفوتنا التذكير برأيه المشهور في تفسير نشأة اللغة المعروف بـ(التواضع) (جني، 2010، صفحة 1/ 33)؛ فاجتماع الحكيمين لإيجاد اللغة يحمل في كينونته فلسفة انعكاس التميز، والانفصال عبر اللغة، وهو عين مفهوم الهوية.

إنَّ اللغة نظام من الإشارات يعكس فاعليّة حياة الإنسان وثقافته وانتمائه، إذ يتفاعل هذا النظام من خلال التواصل بين طرفين أو أكثر لتلبية حاجاتهم وتداول أفكارهم وإثبات هويتهم. وتنماز بعدّة وظائف أهمها:

1. نقل الأفكار والمعلومات والحقائق والعلوم من عصر إلى عصر ومن مكان إلى آخر.
2. تدوين الآداب من ملاحم ومسرحيات وقصص وشعر.
3. نقل الشعور، والإحساس بين البشر.
4. التعبير عن الحقوق والآراء (الخولي، 2000، صفحة 15).

واللغة هي الركيزة الأساسية لكل النشاطات الإنسانيّة؛ لأنَّها تفسر اعتماد المجتمعات الإنسانية عليها في التواصل وتفسير سلوك الأفراد، وهو ما يطلق عليه الدكتور هادي نهر (لغة السلوك) أو (الأتيكيت)، وقسمها على قسمين:

الأول: أفعال مادية خارج الحقل اللغوي كأن تكون حركات أو تصرفات معينة دالّة.

والثاني: أفعال داخل الحقل اللغوي يقتضيها النظام اللغوي المعين في اللغة المعينة ليحكم من خلالها مقاييس اللياقة وعدم اللياقة في المجتمع الكلامي الواحد وهي مقاييس متعددة ومعقدة (نهر، 1988، صفحة 207).

المطلب الثالث: العلاقة بين اللغة والهوية

العلاقة بين اللغة والهوية متناغمة، فالهوية هي الحقيقة المطلقة للغة ما أو شخصية ما كما هو متداول اليوم من مصطلح هوية؛ إذ يدلّ على تحديد شخصية الأفراد وفق لغة معينة، لذا فجُلّ ما يمكن أن يتمسك به الشخص هو الهوية اللغوية، والترسبات التي تتركها الهوية هي الثوابت التي تُغرس في نفس المجتمع، فالهوية نظام معنوي يضمّ سلوكيات الفرد داخل مجتمعه. وهي -أيضًا- نظام عميق متأصل في البشريّة تندرج تحتها المعالم والخصائص التي تتميز بها النفس البشريّة، فاللغة والهوية بنية تحتية لفكر جماعة من البشر يعيشون في ظل كيان ثقافيّ منسجم تتعدى حدود الخطاب والتواصل إلى الفكر؛ ذلك الفكر الناشئ في ظلّ ثقافات معينة صنعت الحضارات في شتى الأزمنة.

أنَّ الزمن يمنح القوى الاجتماعية قدرة لتبدل أو تفرض آثارها في اللغة، ويسمح لهذه القوى بتنمية تأثيراتها. فاللغة يمكنها المحافظة على أغلب ألفاظها فيتداولها الناس في الأزمنة كلها في المحيط الواحد، ويمكن أن يشوبهاا تغيير على وفق العوامل الاجتماعية أو الثقافية أو غيرهما، وإن العامل الوحيد المتغير الذي يمكن االركون إليه في متابعة التغيرات اللغوية هو التغير الاجتماعي الذي تكون تغيراته اللغوية نتائج له (مجد، 2013، صفحة 19) وهذه الرؤية هي رؤية سوسير أيضًا (سوسر، 1984، صفحة 100).

إنَّ ثبات عامل اللغة ووجوده يكمن ضمن السلسلة البيئيّة الوطنيّة لحضارة أي بلد، مشكلّة مرجعاً أساسياً لجميع نشاطات أفراد ذلك المجتمع، فاللغة بصمة البيئة وهويتها التي ينماز من خلالها أي مجتمع عن آخر، وقد أكدت

الدراسات السوسيولغوية أنَّ اللغة هي أبرز مكونات الهوية، إذ يختلط العرق، والجنس باللغة؛ إذ يُنسب الكائن البشريّ غالباً إلى لغته، وعلى ذلك فاللغة والوطن أو الجنسية متلازمان متماسكان، فلا يمكن الفصل بينهما من دون الإضرار بمنظومة الهوية ومكانتها، وقيمتها والسقوط في الضياع التدريجي الذي ينتج عنه التلاشي التدريجي (غيبوب وعشاب، 2021، صفحة 349). فالعلاقة بين اللغة والهوية تكمن في عمدة اللغة، فاللغة بوصفها عموداً يُبنى عليه المجتمع، ويعصمه من التفكك والصراعات التي تفتك به، فهي الطريق الذي يُوحد المجتمع فكرياً ولسانيًا وثقافيًا وتراثيًا.

نشأ المركب الإضافي الذي جمع بين اللغة والهوية ليكوّن مصطلح (الهوية اللغوية) نتيجة ترابط المفهومين ببعضهما في محور أساسي واحد هو المجتمع ومركز نواته الإنسان، فاللغة وعاء حامل للهوية؛ كونها - اللغة - وسيلة يتمّ من خلالها تمرير جميع تفاعلات الإنسان الثقافيّة والاجتماعية داخل بيئته، وانطلاقاً من تلك النتيجة نحكم بانعكاس اللغة على هوية الإنسان؛ لأنها تعكس تراثه وتاريخه ومعتقداته ومدى مستوى تطوره ثقافياً واجتماعياً وسياسياً.

يبرز مصطلحان متداخلان هما (هوية اللغة، والهوية اللغوية)، ومن منطلق براغماتي؛ فالأول منهما يتركز ارتباطه باللغة نفسها في كيانها المستقل، فتصبح بذلك أداة يُعبر بها عن القيم والمفاهيم، مشتملة على التراث اللغويّ والقواعد اللغوية والأدب، فتنحصر غايتها في جعل اللغة وسيلة للتواصل ونقل المعرفة. وأمّا الثاني؛ فهو نظام لغويّ اختصت به جماعة من الأفراد ميزهم عن غيرهم وانطبع فيهم على شكل نبر معين وخصائص انفردت بها تلك المجموعة حملت سمة هويتهم وحفظت خصوصيتها؛ لأنَّ اللغة عادة ما تتأثر بحضارة أي أمة وعقائدها وتوجهاتها العقلية ومدى ثقافتها وشؤونها

الاجتماعيّة، وأحوال بيئتها الجغرافية، فغالباً ما يُنسب أي كائن بشري إلى لغته، فإن كان يتحدث العربيّة فعربيّ، وإن كان يتحدث الكردية فكرديّ، وتضمّ عوامل عدّيدة أهمها: اللغة الأم واللهجة لذلك يكمن شدة ارتباطها بالهوية الشخصية والانتماء الثقافي؛ فاللغة والهوية متلازمان كوجهي العملة الواحدة والفصل بينهما مستحيل؛ لأنَّها المحدد الأساسي والفيصل بين كثير من الهويات والانتماءات.

الهوية اللغوية =لغة + عادات مجتمع معين.

تعكس اللغة هوية الإنسان؛ فثقافة أي مجتمع مرتبطة بلغته، فهي كالمرآة تعكس أفكاره وتطلعاته وسلوكه وتعامله مع الآخرين، فلغتنا الأم تعكس جذورنا وهويتنا (الزبيدي، 2024، 570)، ومن خلال أحاديثنا يُكشف عن انتمائنا وعرقنا وجنسنا، بل تُفصح عن أعمق من ذلك؛ فاللهجة تكشف عن هويتنا الشخصية من خلال كلماتنا أو تعبيراتنا كمحل النشأة أو السكن بشكل مباشر أو غير مباشر.

أما بالنظر للمسألة من منطلق براغماتي، فالهوية اللغوية بطياتها تحمل معانيَ عميقة وتعكس جوانب متعددة من شخصيتنا وتفاعلاتنا مع العالم. وهي تقليد فلسفي يؤكد أن اللغة ليست مجرد وسيلة للوصف، بل أداة عملية تستخدم للتفاعل مع العالم (دلكي وأبو دلو، 2014، الصفحات 76- 77)، وينصبّ اهتمامها على الأثر العملي للكلمات والأفكار، إذ تشكل الهوية اللغوية جزءاً أساسياً من مساحتنا الشخصية وتعبيرنا عن أنفسنا.

إنَّ قوة أي أمة تكمن في قوة لغتها؛ لأنَّها تشكل زخمًا معرفيًا يحيط بكل مناحي الحياة العلميّة والأدبية، بالتالي تكون اللغة المقوّم الرئيس للهوية، فكلما زاد وعي المواطن بلغته، زاد وعيه القوميّ وزاد شعوره بالانتماء إلى

تراثه، وإلى هويته، فلا هوية من دون لغة، ولا وطن دون هوية (ملوحي، 2020، صفحة 520).

وكلما ازدادت العوامل الداخلية والخارجية في أي مجتمع قوة وتجذرًا وصلابةً، ترسخت الحضارة وتعمقت الهوية، ومن أهم هذه العوامل: الفكر، والاقتصاد، والسياسة، والدين، واللغة، والتاريخ، فهي مقومات أي حضارة، ويعد وجودها عامل صدّ وحماية وقوة تستمدها من هوية شعوبها.

المطلب الرابع: الهوية، واللغة، والعراق

واكب العراق كثيرًا من الثقافات والحضارات، وقد كشف لنا علما الآثار والتاريخ ما يصوّر شكل العجلة التاريخيّة التي تدور بين التألق تارة والضمور تارة أخرى. ومن خلال التعامل مع معطيات التاريخ يظهر لنا في الساحة العراقية مشهدان لغويان يتمثلان بالصراع والتعايش، الرفض والقبول لعدد من الهويات اللغوية، هي:

أ- الهويات اللغوية للعراق في فترة ما قبل التاريخ:

1. الهوية اللغوية للغات النقوش والكهوف.
2. الهوية اللغوية للفراتيين الاوائل.

ب- الهويات اللغوية للعراق لفترة ما بعد التاريخ:

1. الهوية اللغوية السومرية.
2. الهوية اللغوية الأكدية (البابلية والآشورية).
3. الهوية اللغوية الفارسيّة (العيلاميّة، الساسانيّة، الأخمينيّة).
4. الهوية اللغوية التركيّة (الحثيّة، الكوتيّة، الميتانيّة).
5. الهوية اللغوية الآمورية.
6. الهوية اللغوية العبريّة.

7. الهوية اللغوية الآراميّة.
8. الهوية اللغوية العربية.
9. الهوية اللغوية السريانيّة.
10. الهوية اللغوية الكلدانيّة.
11. الهوية اللغوية التركمانية.
12. الهوية اللغوية المندائيّة.
13. الهوية اللغوية الكرديّة.
14. الهوية اللغوية الشبكية.
15. الهوية اللغوية للعاميات العراقية (باقر، 2010، الصفحات 20-34) (السامرائي، 2003، الصفحات 15-66).

هذا الكمّ الكبير، والمتنوّع من اللغات يمثل انعكاسًا حقيقيًا للحقبات الحضارية التي مرّت على العراق بما تختزله من صراعات عرقية، وإثنية، وفكرية حاولت أن تكون اللغة واجهتها الكبرى، ولسانها المعبّر، وعليه فإنّ الاهتمام بدراسة هذا الكمّ من تنوع اللغات التي استوطنت العراق، أو عاشت فيه لمدد زمنية يمثل قيمة ذات أهمية في دراسة العراق نفسه من أي اتجاه علميّ كان.

الهوية ظاهرة معقدة وحيوية، والحركات التي تنشطها متناقضة، والهوية تتصف بالاستمرارية والتغيير نتيجة الصراعات المتطاولة (جواد ف، 2019: 317)؛ لأنَّها تتأكد بواسطة الشعور بالاستقرار والأمن لدى الفرد، وهي تفترض بالضرورة وجود تغيير ثابت (مسلم، 2009، صفحة 89).

هوية العراق اللغويّة كانت وما زالت تتأرجح بين المدّ والجزر؛ فهي تارة تفقد وأخرى تكتسب، وكثيرًا ما طالت آفة الانقراض اللغات عامّة والعراقية خاصة، ومع موت كلّ لغة تموت كثير من الثقافات، وانقراض هذه اللغات

ينعكس سلبا على عالمنا ويؤثر في تغيير هوياتنا تغيراً جذرياً؛ لأنَّها لم تنشأ من العدم بل هي انجاز عبقريّة بشريّة، وإن اهتمامنا هذا في مسألة موت اللغات نابع من الحرص على هوية الأمة وحياتها (كريستال، 2006، صفحة 72)؛ فالسومريون هويّة عراقية عاشت على أرض العراق، ومع موت اللغة استطاع الأدب السومريّ نقل هويته عن طريق أساطيره ورواياته وتجارته وثقافته وأعماله الأدارية في مدونة وظّفها الأكديون في لغتهم، وهكذا استمرّت ملامح العلاقة الراسخة بين اللغة والهوية.

قد قدّمت الأنثروبولوجيا كثيرًا من الخدمات لعلوم اللغة أو الألسنيات الحديثة، ولا سيّما فيما يتعلّق بتحديد الهوية الثقافية والحضارية، والعرقية لشعوب العالم، لقد وجدت اللغة مصاحبة للإنسان الذي قرر العيش في جماعة، فهي -اللغة- الحامل والوعاء الناقل الذي يمكّنه فهم الواقع المحيط به (داوود، 2004، صفحة 2/ 168)؛ فاللغة تفسّر الوجود البشري وهذا ما يؤكده اتحاد الهوية بالتاريخ، لذا فإنّ عدم استيعاب اللغة وإهمال تدوينها سيخلق حاجزاً بين الإنسان وتاريخه.

من المؤسف أن لا نمتلك ما يمكن عدّه مدونة لغوية للغات ماتت من دون تدوين لها (كريستال، 2006، صفحة 79)؛ ومحور (اللغات أنساب الأمم) من شأنه أن يعزز قوة الربط بين الإنسان واللغة، فالأنساب نسل، وذريّة، وأصل، والنظر للنتاج التاريخيّ أو المراجع في أي مكتبة سيكوّن لنا فكرة عن الوثائق الشخصية لأجدادنا ومذكراتهم وأختامهم في مخلفاتهم الصوريّة أو نقوشهم على الجدران التي تمثل دليلاً على أصولنا (كريستال، 2006، صفحة 80). لكن ماذا بعد كل هذا إن ماتت اللغة؟! إذا ماتت اللغة سنُعزل وتقطع الروابط بيننا وبين ماضينا، بما يعني انسلاخنا عن الأصل أو الجذر الذي نشأنا منه. هناك فرق بين موت لغة وذوبانها في طيّات التاريخ دون

تدوينها، وذوبان آخر مازال يُتداول جزء من تراثه إلى اليوم بعد مرور ما لا يقل عن 3000سنة قبل الميلاد.

المطلب الخامس: الصراع اللغوي، والهوية اللغوية.

إنَّ جديّة الوجود وعدم موت اللغة يمكن ابرازه من خلال الصراع الحضاري؛ لأنَّ الصراع الحضاري يستهدف اللغة أولاً، والبرهنة على صراع اللغات واضحة وجلية إذ نجدها في قضايا الاقتراض اللغوي، حيث تشهد الطبيعة العامة لجميع الكائنات بمولد صراع بينها بين حين وآخر حال احتكاكها ببعض، فكيف باللغات التي تشبه الكائن الحي في النمو والتطور والموت من جهة، وتعدّ روح الهوية ووعاء أي مجتمع بشريّ من جهة أخرى، ونشوب هكذا نوع من الصراعات يكون -غالباً- سعياً وراء الغلبة والسيطرة على الآخر، ونتاج الصراع اللغوي يختلف باختلاف الأحوال، كتوظيف وسائل القوة والهيمنة للقضاء على الآخر، دون أن يترك للمغلوب أي أثر يُذكر، وهذا النوع من الصراع خير ما مثلته العربية مع الآراميّة حين اجتاحت الأولى بيئة العراق ولم تُبقِ للثانية أي أثر يُذكر، أو إمهال الغالب المغلوب بفرصة يتناقص فيها ويذبل بالتدريج، ممتصاً قوته وطاقته حتى يتم القضاء على المغلوب وهذا ما حدث مع السومريّة والأكدية، فقد ذابت السومرية تدريجياً، واحتفظت الأكدية بقوتها. وقد نجد أنَّ سجال هذا الصراع لا منتهى منه، ويبقى كل من الغالب والمغلوب محافظاً على لغته وهويته، وينشأ هذا الصراع في الغالب من نزوح بلد إلى آخر؛ كأن تكون هجرة أو حروبًا أو أن يتجاور هذان الشعبان فيتبادلان المنافع فيما بينهما من خلال الاحتكاك المادي والثقافيّ كالفارسيّة والعربيّة اليوم (وافي، 1983، صفحة 81).

وللعراق هويته التي تميزه؛ إذ يستخدم على المستوى الرسمي اللغة العربية، لكن العامية العراقية هي لغة التعامل اليومي بين أفراد الشعب وبجميع مستوياته وطوائفه وتنتشر في جزء من شماله، ووسطه وجنوبه وغربه وشرقه كلّه، أما أقصى شماله فيتحدثون باللغة الكردية وهي لا تتعدى كونها لغة جماعة language group، حيث يقتصر استخدامها على مجموعة حضارية أو إثنية داخل حدود العراق، فتكون معرفة لغة المجموعة أو الأثنية ethnic language أبرز المعايير التي تُفصح عن بيان انتماء الفرد وتحديد هويته، لكن الاختلاف يقع في اللغات الدينية، فالصابئي يختلف عن المسلم، والمسيحي يختلف عنهما (حجازي، د.ت، صفحة 20).

أما لغة التعليم فهي الأخرى متنوعة في كلّ جزء من أرضه، حيث يتعلم الطالب في شمال العراق باللغة الكردية وفي باقي أنحائه باللغة العربية، ويختلف التعليم في بحسب نوع القسم العلميّ لا الموقع الجغرافي، حيث لا يُدرس في العراق قسم طبيّ باللغة العربية، ويسمى هذا النوع من اللغات بلغات الثقافة أو التعليم أو اللغات التقنية.

بالنتيجة فالعراق بلد متعدد الهويات على مستوى البيئة الجغرافيّة، في شماله نجد التركمانية والكردية والسريانية وفي الوسط والجنوب نجد المندائيّة والعربية، وعلى الرغم من التفاوت الكميّ بينهنّ إلا أنه لم يحدث إقصاء عرقي لأي فئة بعد مجيء الإسلام واجتياح العربيّة لأرض العراق؛ لأن الإسلام يسير بقانون ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾{البقرة:256}.

كانت العربية إبان العهود الجاهلية فصيحة، وعلى الرغم من ذلك لم يكتب لها الانتشار إلا بعد بزوغ نور الإسلام، فالإسلام هو الذي نفخ الروح في الهوية اللغوية للعربية بخصائصها اليوم، فرسم لها الأهداف، وثبّتها ونشرها وخلّدها فهي اليوم من أطول اللغات عمرًا، وكان للأحوال السياسية ولا

سيّما في العصر العباسيّ الذي ازدهرت فيه الحضارة الإسلاميّة وبلغت أوجها، ودخلت الترجمة من المعارف اليونانيّة والفارسيّة، أثر في الهُوية اللغوية للعربية مستقطبة للكثير من النتاجات الفكريّة والحضاريّة (زيدان، د.ت، الصفحات 23/1-25، 190- 191).

شاب اللغة شيء من اللحن؛ وهو النطق بإسلوب مخالف للقواعد الصحيحة، أي المخالفة في طريقة التعبير المتعارف عليها، "وأغلب الظن أنَّه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى الفرق بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون، وكثير من هؤلاء لم يكونوا يستطيعون إخراج حروف الحلق والإطباق ... فاستعاضوا عنها بحروف أخف على ألسنتهم وأسهل على طباعهم... لم يكن من السهل على العربي أن يتابع كلامه بالفهم الصحيح؛ وكان لا بدّ أن يؤدي ذلك إلى إدراك العربي معنى الخطأ اللغوي، والخلط في التعبير" (فك، 2014، صفحة 245). ولم تسلم لغة الهوية الأدبيّة أو الذائقة الأدبية من ذلك الخراب، فقد تغيرت منذ القرون الوسطى إلى اليوم.

وكثيراً ما نجد الهُوية اللغوية متباينةً بين الأفراد وثقافاتهم بحسب المواقف والظروف، وأُختصِر كثير فيما يتعلق بهذا الجانب حين قيل: "لكل مقامٍ مقالٌ؛ ولكل موضعٍ مجالٌ" (المقفع، 1937، صفحة 161)؛ فالمقام هنا لا يعني به المكان فحسب، بل الاطار الاجتماعي للموقف أو الحدث الكلامي كاملاً من متكلمين وسامعين، تأخذ بعضها بلحاظ بعض مشكلّة تلك الهوية اللغويّة من خلال علاقتهم ببعضهم وبما يحويه الموقف من أشياء تُفهِم الكلام، "وهذا الكلام في حقيقة الأمر ليس إلا عنصراً واحداً من عناصر المسرح اللغوي بأكمله، ولا يُفهمُ إلا في هذا الإطار العام" (محمد، 1969، صفحة 65).

إنَّ الباحث في الهوية اللغوية لأي بلد ما ملزم بأن يطرح الأسئلة عن تاريخ اللغات؛ ما أصلها؟ وماذا أصبحت؟ ومتى؟ وإلى أين تتجه؟ وهو بهذا المسار يراقب العوامل التي أثرت في قوتها وازدهارها أو في موتها واضمحلالها، أو فيما يؤثر فيها (زيدان، 2024: 660)، ويتقاطع المنهج التاريخي مع المنهج الوصفي في دراسة اللغة المنطوقة؛ لارتباطها باللهجات على عكس المنهج التاريخي الذي يدرس اللغات المكتوبة التي دُوِّنت في وثائق بعيداً عن جانبها المحكيّ المنطوق (عمايرة، 1992، الصفحات 22- 23).

يعتمد المنهج التاريخي بصورة أساسية على الجانب المكتوب من اللغة لا المنطوق منها؛ لانعدام التوثيق الصوتيّ لتلك اللغات، فيلجأ الباحث عند دراسة اللغات المكتوبة إلى المدونات الآثارية، والتاريخية كالأحجار والألواح وأوراق البردي لدراسة تلك اللغة (العزيز، د.ت، صفحة 150)، ويدرس علم اللغة التاريخي التطور في شقين: الأول: التطور في بنية الكلمة. والشق الثاني: مجالات الانتشار والاستخدام اللغوي (ياقوت، 2011، صفحة 111).

بدأ التفكير الجدي بهذا الحقل من الدراسات في القرن الثامن عشر واستمر التفكير بالبحث عن العلاقات التاريخية بين اللغات وعن الأسر التاريخية أو الوراثية عن طريق مقارنة مفردات اللغات الأوروبية الحديثة وتراكيبها بمفردات اللاتينية وتراكيبها (روبنز، 1997).

إنَّ المنهج التاريخي للغات ينطلق من منطلق أنَّ اللغات جميعها في حركة مستمرة عبر معيار واحد (الزمن)، ومن خلال هذه الحركة يتغير فيصيب اللغة بكل مستوياتها وهنا يبدأ عامل الرصد العينيّ للغات من خلال العمر الزمني الطويل لها، وقد كانت من أهم طموحات هذا المنهج الوصول إلى اللغة الأم، ولكنْ بعد أن اكتسب تحديده المنهجي ضيّق مجاله ليصبح عمله

رصد ما أصاب اللغة بعينها من تطور على امتداد التاريخ (البيلي، 1990، الصفحات 184- 185). ومن أهم ما اختصّ به علم اللغة التاريخي:

1. الوقوف على التطورات الاجتماعية والثقافية والعلمية، والمعطيات المؤثرة في اللغة، وتطورها.

2. رصد انتشار اللغات، وانشطارها إلى لهجات.

3. الوقوف على مسألة تحول اللغة الفصيحة إلى لغة عالمية؛ كالآرامية التي انتشرت في الشرق الأوسط بأكمله، ومعرفة أسباب ذلك، والعوامل الحضارية والسياسية والثقافية والدينية الفاعلة في ذلك.

4. دراسة ما يعتري اللغة من ظواهر تخصّ الأصوات والصرف والنحو والدلالة عبر الزمن (قدور، 2011، الصفحات 27- 28).

واللغة ظاهرة لا تعرف الثبات وفق رؤية علم اللغة التاريخي وأي طارئ كفيل بأن يحكم عليها بالتغيير، لذلك نجد علم اللغة التاريخي قد وُظِّف لرصد الحركة العامة لهذا التغيير، إضافة إلى اعتماده على اختيار البيئة المكانية (الجغرافية) لا لتحديد ذلك التغيير عبر فترات زمنية تبعد أو تقصر بحسب نوع الدراسة ومكانها؛ لأنَّ عمله بالتالي ترجمة للحدث اللغوي المبهم والملغّز خاصة ما كان مشفراً من اللغات.

يقف الموضوع محلّ الدراسة على أعتاب اشتراك مفاهيم مجموعة من الفروع اللغوية، فالاهتمام بعلم اللغة التاريخيّ لا يكفي وحده؛ لتعلّق الدراسة ببيئة جغرافية محدّدة هي العراق، وعليه فإنَّ الحاجة إلى علم اللغة الجغرافيّ لا تقلّ عن أهمية الحاجة إلى علم اللغة التاريخيّ، وعلى الرغم من تباين مفهوم (العراق) جغرافياً عبر التاريخ اتّساعًا، وانحسارًا في المساحة، إلا إنَّ المقدار المتيقن من الفهم الجغرافيّ للعراق سيكون في حدود الفهم السياسيّ الحالي؛ لكونه يمنع الدراسة من الاتّساع بما يخرجها

عن الضوابط العلمية، ولكون ما في هذا المكوّن السياسيّ الإقليميّ الحالي له كافياً بالمقدار الذي يمنحنا رؤية ممتازة عن تلك اللغات التي عاشت واصطرعت على أرضه عبر الأجيال المتعاقبة. وعليه فإنَّ البحث سيكون متداخلًا في منهجه معتمدًا على مجموعة كبيرة من الرؤى التاريخية والآثارية والجغرافية واللغوية.

الخاتمة والتوصيات:

يمكننا القول: إنّ الاهتمام بدراسة الخارطة الجغرافية للغات التي عاشت في العراق أمر له قيمته الحقيقية من وجهات كثيرة؛ فهو الكاشف عن الصراع اللغوي التاريخيّ للغات في وجودها وبسط نفوذها، وحياتها واستسلامها وموتها خاتمة المطاف، وهو ما يمنحنا تصوّرات ممتازة لحياة العراق وهويته اللغوية.

ومن جهة أخرى فإنّ الاهتمام بدراسة هوية العراق اللغوية يمنحنا فرصة بحثية لفهم طبيعة المجتمعات التي تتعايش في العراق، والاطلاع على ثقافاتها الدينية والحضارية؛ لأنّ اللغة هي الصندوق الأمين لحفظ ذلك كلّه، وفي خضم الوضع الحاليّ فإنّ توظيف اللغة في خلق رؤى حقيقية وفعّالة للتعايش السلميّ في العراق يعدّ أمرًا في غاية الأهمية.

ولا بدّ من القول: إنّ الاهتمام بموضوع (الهوية اللغوية) يفتح الآفاق في اتّجاهات بحثية كثيرة ومتنوعة تختلف بحسب المناهج التي يتوخاها الباحثون في سبيل ذلك، ولكن لعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة الجغرافي، وعلم اللغة التاريخي، وعلم اللغة المقارن النصيب الأكبر من هذا الأمر، وعليه يمكن اقتراح موضوعات تنضوي على أفكار ذات قيم بحثية عالية في هذا الخصوص.

المصادر:

- ابن المقفع (142هـ)، عبدالله، كليلة ودمنة، المطبعة الاميرية ببولاق، القاهرة، ط/17، 1937م.
- ابن جني(392هـ)، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب،الطبعة الثانية، 2010 .
- ابن فارس (395هـ)، أبو الحسن احمد القزويني الرازي، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، 1979م.
- ابن منظور(711هـ)، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1414هـ
- باقر، طه، من تراثنا اللغوي القديم ما يسمى في العربية بالدخيل، دار الوراق، 2010م.
- البيلي، أحمد عزت، محاضرات في علم اللغة العام، دار الثقافة العربية،1990م.
- الجرجاني (816هـ)،علي بن محمد السيد الشريف، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة :محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، دت.
- جواد ف. (2019). جدلية الهوية والانتماء في ادب يهود العراق في إسرائيل. لارك، 11(4)، 317-328. https://doi.org/10.31185/lark.Vol11.Iss3.1115.34
- حجازي، د. محمود فهمي، علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، وكالة المطبوعات، الكويت، توزيع: دار العلم للملايين، بيروت، د.ت

- الخولي، محمد علي، مدخل إلى علم اللغة، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، الاردن،2000م.
- داود، د أحمد، تاريخ سوريا الحضاري القديم-2، دار الشرق للطباعة والنشر، مزرعة، دمشق، 2004م.
- دلكي، خالد حسين ود. احمد محمد أبو دلو، البعد البراغماتي لنظرية تحليل الخطاب (مقاربة في المفهوم والاجراء)، مجلة بيان العدد 1، السنة الاولى، يوليو اغسطس سبتمبر، 2014م.
- دو سوسير، فردينان،، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة :يوسف غازي ومجيد النصر، دار النعمان للثقافة، جونية، لبنان، 1984م.
- رشا طارق عواد الزبيدي م. (2024). دراسة سوسيولوجية-أسلوبية لدور الهوية الاجتماعية في نصوص نسوية مختارة. مجلة واسط للعلوم الإنسانية، 20(1Pt/4), 566-586 .
4.745.Iss20/wjfh.Vol10.31185https://doi.org/
- ر.هـ. روبنز، موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ترجمة: د.أحمد عوض، عالم المعرفة الكويت، 1997م.
- زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، مراجعة وتعليق شوقي ضيف، مؤسسة دار الهلال، د.ت.
- السامرائي، إبراهيم، التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، 2003م.
- صليبة، جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982 م.

- عباس سليم زيدان أ. (2024). الثنائية اللغوية واثرها في الهوية الثقافية، عرب 1948 في فلسطين إنموذجاً. لارك، 16(3 /2Pt,(664-653 . https://doi.org/10.31185/lark.3450
- عبد العزيز، محمد حسن، مدخل إلى علم اللغة، القاهرة، د.ت.
- عمايرة، د. إسماعيل أحمد، المستشرقون والمناهج اللغوية المنهج التاريخي المنهج المقارن المنهج الوصفي المنهج الإحصائي، دار حنين عمان، الأردن، ط/2، 1992م.
- عمر، عبد المجيد الطيب، منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة - دراسة تقابلية - (أطروحة دكتوراه)، جامعة ام درمان الإسلامية، كلية الدراسات العليا، كلية اللغة العربية، 1431هـ -2010م.
- الغوث، مختار، اللغة هوية الحرب الباردة على الكينونة العربية، صوفيا، الكويت، الطبعة الثانية، 2021م.
- غيبوب، د. بايه وعشاب، د.آمنة، دور المواطنة اللغوية في تحصين الهوية الوطنية لدى الجزائري، مجلة جسور المعرفة، مجلد 7، عدد 4 خاص، 2021م.
- فك، يوهان، العربية دراسات في اللغة واللهجات والاساليب، ترجمة :عبد الحليم النجار، تصدير: احمد امين بك، تقديم: محمد يوسف موسى، تقديم هذه الطبعة: محمد حسن عبد العزيز، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014م.
- قدور، أحمد محمد، مبادئ اللسانيات، الدار العربية، بيروت، لبنان، 1433هـ - 2011م.
- قرفي، فضيلة، الهوية عند تشارلز تايلور (رسالة ماجستير)، جامعة 8.ماي 1945، قالمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2016-2017م.

- كريستال، ديفيد، موت اللغة، ترجمة: د. مهند بن مسعد اللهيبي، جامعة تبوك،2006م.
- الكفوي (1094هـ)، أبو البقاء ايوب بن موسى الحسيني، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، قابله ووضع فهارسه: د. عدنان درويش ومحمد المصري، ناشرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1998م.
- كوراني، د. ألس، مجد، اللغة والمجتمع عند العرب (الجاحظ نموذجا)،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1434هـ - 2013م.
- الماتريدي (333هـ)، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، التوحيد، تحقيق: فتح الله حليف، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، د.ت.
- محمد، د. كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، القاهرة، 1969م.
- مسلم، محمد، الهوية في مواجهة الاندماج، دار قرطبة، الجزائر، 2009م.
- نبي س. (2023). نوستالجيا الخلافة العثمانية (تشريح خطاب الهوية عند الرئيس التركي رجب طيب أردوغان). مجلة واسط للعلوم الإنسانية، 19(2). https://doi.org/10.31185/Vol19.Iss19.406.55
- ملوحي، أ.د ناصر محيي الدين، اللغة العربية اصل اللغات العالمية، دار الغسق للنشر، الطبعة الثانية، 1441- 2020م.
- الهروي (401هـ)، أبو عبيد احمد بن محمد، الغريبين في القرآن والحديث، تحقيق ودراسة: احمد فريد المزيدي وأ.د فتحي مجازي، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، 1419هـ - 1999م.

- وافي، د. علي عبد الواحد، اللغة والمجتمع، ط/4، عكاظ للنشر والتوزيع، 1403هـ - 1983م.
- ياقوت، د. محمد، مناهج البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية،2011م.
- اليعقوبي، محمد، معجم الفلسفة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2008م.
M.Heidegger, Cheminsqui . ne Ménent Nulle Part, Gallimard ,Paris,-.1962